

اسم المقرر ورقمه

الأخلاق وآداب المهنة

سلم ٣١٧

د. عبد الله الديرشوي



نظام التعليم المطور للانتساب
كلية الآداب- قسم الدراسات الإسلامية

المحاضرة الخامسة المسؤولية عن السلوك الأخلاقي

في هذا المبحث سنتعرض لمسائل ثلاثة مرتبطة ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. وهي على الترتيب: الإلزام، ثم المسؤولية، ثم الجزاء.

بمعنى أن الإلزام يكون أولاً، ثم تتبعه المسؤولية، ثم يتبعهما الجزاء أخيراً.

أولاً – الإلزام:

تعريفه الإلزام الخُلقي:

يمكن تعريف الإلزام في باب الأخلاق بأنه: تكليفٌ بتشريع خُلقي. أو بعبارة أوضح:

أمرٌ صادرٌ من الشرع للمكلف بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذمومٍ. والمقصود بالمكلف هو الشخص: البالغ العاقل.

أي أن الإلزام الخُلقي أمرٌ صادرٌ من الله سبحانه أو من رسوله صلى الله عليه وآله وسلم للبالغ العاقل، وبمقتضاه يُطالب هذا الشخص بأن يتصف بخُلُقٍ محمودٍ كالصدق والعدل ونحوها، أو ينتهي ويبتعد عن خُلُقٍ مذمومٍ كالكذب والرياء ونحوها.



مصادر الإلزام الخلفي:

يذهب عامة علماء المسلمين إلى أن مصدر الإلزام الخلفي - كغيره من الأحكام الشرعية - إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ} {يوسف: ٤٠}، وقال جل في علاه: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} {الأعراف: ٥٤}. فالتشريع حق لله وحده.

ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا} {الحشر: ٧}، وقال أيضاً: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} {آل عمران: ٣٢}. فاتباعنا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام إنما هو استجابة وامتثال لأمر الله سبحانه. وقد بعثه الله إلينا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، وأقام بهما الحجة على العباد، وبدونهما لا محاسبة ولا عقاب، قال تعالى: {رُسُلًا مَّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} {النساء: ١٦٥}، وقال أيضاً: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} {الإسراء: ١٥}.



وإذا كان مصدر الإلزام هو الشرع، فإن هناك أموراً تعين على تحقيق الالتزام في حياة الناس، وهي متفرعة عن الشرع، ومنضبطة به، وتتمثل في عوامل داخلية كالإيمان والعقل والفطرة والضمير الخلقي، وعوامل خارجية كالمجتمع والسلطة الحاكمة.

وفيما يلي بيان موجز بكل واحدة منها:



-العوامل الداخلية للإلزام:

أولاً- الإيمان بالله: إن كثيراً من الممارسات الخلقية الحميدة لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، والطمع بالثواب والرضا من الله تبارك وتعالى، وليس من البشر، وذلك كما في مقابلة الإساءة بالإحسان، والصبر على الظلم مع القدرة على الرد، والإنفاق على الأيتام والمحتاجين من غير انتظار الجزاء منهم، والتضحية بالمال مع شدة الحاجة إليه، وفي هذا جاء قول الله تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً} {الإنسان: ٨-٩}. يقول ابن القيم رحمه الله: "الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها والأمر بأحسنها والنهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيهِ لصاحبه، وائتثار صاحبه وانتهائوه".



ثانياً- العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعة ومفيدة أقدم عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارة أو أليمة أحجم عنه، أي أن العقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على التصرفات الأخلاقية الحميدة، والإحجام عن التصرفات المشينة، فالعقل يقود صاحبه إلى الخلق الحميد، وتعطيئه يقوده إلى العكس. وفي هذا جاء إخبار الله عن أهل النار بقوله: [وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ] {الملك: ١٠}.

يقول ابن القيم رحمه الله: " أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارم الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد وحفظ الجوار ونصر المظلوم والإعانة على نوائب الحق وقرى الضيف وحمل الكل ونحو ذلك ووضع في العقول والفطر استقباح أصدقاء ذلك ونسبة هذا الاستحسان والاستقباح إلى العقول والفطر كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظمأ وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع ولبس ما يدفئه عند البرد فكما لا يمكنه أن يدفع عن نفسه وطبعه استحسان ذلك ونفعه فكذلك لا يدفع عن نفسه وفطرته استحسان صفات الكمال ونفعها واستقباح أصادها ومن قال : إن ذلك لا يعلم بالعقل ولا بالفطرة وإنما عرف بمجرد السمع فقوله باطل".



ثالثاً- الفطرة: الإنسان بفطرته السوية السليمة يهتدي إلى الأخلاق الحميدة، ويرتاح لها قلبه وضميره، فالعفة والسخاء والحياء والصدق والشجاعة والإحسان والحلم والأناة كلها قيم أخلاقية راقية تهفو إليها الفطر السوية، وتسعى للتخلي بها، على العكس من أزداد تلك الصفات كالخسّة و صفاقة الوجه، والجبن، وبذاءة اللسان فإن الفطر السليمة تستقبحها وتتفر منها، والإسلام دين الفطرة، قال تعالى: [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ] {الرُّوم: ٣٠}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه واقرؤوا إن شئتم: { فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله}.

يقول ابن القيم: "الله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه ... أن خلقهم في أصل النشأة على الفطرة السليمة. فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه و سلم وشبه ذلك بخروج البهيمة صحيحة سالمة حتى يجدها صاحبها".



رابعاً- الضمير أو الوازع الديني: ونعني به ذلك الشعور الخفي الذي نحس به في أعماق نفوسنا، ينادينا ويدفعنا إلى ممارسة فعل أو الكف عنه. وحين نستجيب له يغمرنا شعور عارم بالراحة واللذة. وأما إذا تجاهلناه حصل معنا العكس تماماً، فتشعرنا بالانقباض والألم النفسي (ويسمى بوخر الضمير)، ونلوم أنفسنا على ذلك التقصير، ولا نريد أن يطلع عليه أحد.

وهذا الضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سِنِي حياته ومن خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به. ومن هنا كان دور الدين قوياً بل أساساً في نشأته وصياغته في المجتمع الإسلامي. ولعل في قول النبي عليه الصلاة والسلام: "الْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَأَطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ" ما يشير إلى هذا الضمير الخفي أو الوازع الديني، الذي يكون رقيباً على تصرفات المسلم، فيدفعه إلى طيب الأفعال، والأقوال ولو لم تكن نصوص الشرع أمرة بها، وتكفه عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهية عنها.



- العوامل الخارجية:

أولاً- المجتمع: أمر الله سبحانه جماعة المسلمين أن يراقبوا سلوك الأفراد داخل المجتمع، وأن يأخذوا على يد الشارد منهم، والمنحرف عن جادة الحق، وأن يعاقبوه ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ} {المائدة: ٣٨}، وقال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} {النور: ٢}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من رأى منك منكرًا، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"^(٣). فالأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم؛ فتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، وتأخذ على يد الظالم والعاث، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرورها. قال تعالى محذراً من ذلك: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} {الأنفال: ٢٥}.



ثانياً: السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (والمتمثلة بولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حملُ الناسِ على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بالأخلاق النبيلة، والابتعاد عن السلوك المنحرف. وقد لخص الإمام الماوردي رحمه الله مهام ولي الأمر هذه في كتابه الأحكام السلطانية في أربع كلمات فقال: هي "حراسة الدين، وحراسة الدنيا".

وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وأما سياسة الدنيا فتكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

ولا شك أن ولي الأمر لن يستطيع أن يحقق ذلك كله من خلال شخصه وبمفرده، بل عليه أن يستعين بأناسٍ صالحين أقوياء أمناء ليكونوا له عوناً على الأمور.



- خصائص الإلزام الخُلقي:

يمتاز الإلزام الخُلقي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:

- الإلزام بقدر الاستطاعة، [لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا] {البقرة: ٢٨٦}، فلا تكليف إلا بقدر الطاقة والاستطاعة، وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخلق القويم.
- اليسر في التطبيق، [يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ] {البقرة: ١٨٥}، إذ لم يشرع لنا من التكاليف ما من شأنه أن يوقعنا في الحرج والمشقة.
- مراعاة الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ} {الفتح: ١٧}، وكما في الترخص بالتلفظ بلسانه بالكفر مع بقاء قلبه مطمئناً بالإيمان، قال تعالى: [مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا] {النحل: ١٠٦} .



ثانياً: المسؤولية:

تعريفها: هي "التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً".
أو هي: "تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله".



- شروط المسؤولية:

تتمثل الشروط الضرورية لمسئولياتنا أمام الله ثم أمام أنفسنا فيما يلي:

١- الأهلية، وذلك بأن يكون الشخص أهلاً لتحمل المسؤولية (فيكون بالغاً عاقلاً)، وإلا فلو كان مجنوناً أو صغيراً (دون سن البلوغ) فإنه لا يكون من أهل المسؤولية؛ لحديث: "رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ".

٢- الإرادة: أي أن يكون العمل نابعاً من إرادته، وإلا فلو كان العمل لا إرادياً كما في الخطأ، أو في حالة النائم، أو كان صاحبه مكرهاً، لم يتحمل مسؤولية تصرفه؛ لحديث: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

٣- النية، إذ المسؤولية الحقيقية عند الله إنما هي على النية والقصد دون ظاهر السلوك؛ أي أن تتجه النية من الشخص إلى العمل، وأن يعمل حقيقة. وهذا هو المطلوب من الإنسان، وبه ينتهي مجال الفعل الأخلاقي، وأما النتائج والمعطيات فلسنا مسؤولين عنها، بل أمرها بيد الله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم في بيان هذه الحقيقة



(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)، كما يؤكد قول الله تعالى: [لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ] {البقرة: ٢٢٥}.
وعليه فإن الإنسان غير مسؤول عن أعماله اللارادية، لأنه لا مسؤولية من غير إرادة، كما أنه غير مسؤول عن فعله الذي وقع خطأ منه، لعدم توافر نية الشر لديه، وفي بيان ذلك يقول الله تعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} {الأحزاب ٥}.

٤- العلم بالعمل، وبما يؤدي إليه من خير أو شر، أو إمكانية العلم حتى وإن قصر ولم يتعلم، قال تعالى: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا] {الإسراء: ١٥}. و لا يعني هذا عدم مؤاخذه الإنسان بما يجهل، بل المقصود أنه لا يؤاخذ حتى تقوم عليه الحجة، فإذا أمكنه التعلم، ثم قصر ولم يتعلم، فإنه لا يُعذر بجهله.

٥- كون العمل مما يطاق، أي أن بإمكان المكلف الفعل أو الترك: قال تعالى، [لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا] {البقرة: ٢٨٦}.



- خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها ذات طابع شخصي، بمعنى أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فقط دون تصرفات غيره، وقد أكدت هذه الحقيقة آيات كثيرة من كتاب الله منها: {مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} {الإسراء ١٥}، ومنها: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} {النجم ٣٩}، والثواب والعقاب إنما يكون على تصرفاته من الأقوال والأفعال.

غير أن هذه المسؤولية الفردية لا تعني أن لا يكون الفرد مسؤولاً عن انحراف أبنائه أو أقرانه، أو من له ولاية عليه. والمسؤولية هنا ليست من أجل الفعل، بل من أجل التقصير في واجبه فيما وكل إليه؛ كما في الحديث: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"، أو لتقاعسه عن واجبه الذي فرضه عليه الشرع، قال تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} {آل عمران ١٠٤}.



- أنواع المسؤولية:

تنقسم المسؤولية إلى ثلاثة أنواع:

١. المسؤولية الأخلاقية المحضة: وتعني الالتزام الذاتي من الإنسان نفسه على الإتيان بشيء أو الانتهاء عن فعل شيء.
٢. المسؤولية الاجتماعية: وتعني الالتزام تجاه الآخرين من أبناء المجتمع، وما يفرضه المجتمع من قواعد.
٣. المسؤولية الدينية: وتعني الالتزام أمام الله تعالى.



ثالثاً - الجزاء:

- تعريفه: هو الأثر المترتب على الفعل الإنساني؛ ظاهراً أو باطناً، في الدنيا أو في الآخرة.

- أنواعه: للجزاء ثلاثة أنواع هي: الجزاء الأخلاقي، والجزاء الشرعي، والجزاء الإلهي.

١- الجزاء الأخلاقي:

ويعني ما يلاحظه الإنسان من نفسه جراء إقدامه على عمل طبقاً لما يعرفه من الأحكام والتشريعات والقواعد ويحس بها، كالرضا في حالة النجاح، والألم في حالة الإخفاق. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن). حديث صحيح. ففي هذا الحديث ترجمة وتحديد للإيمان الخلقي.



٢- الجزاء الشرعي:

ونعني به العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود الله، فيظلمون بذلك أنفسهم، ويظلمون غيرهم. والغاية من هذا الجزاء الشرعي معاقبة المجرم وردعه، وكذا ردع الآخرين ممن يمكن أن تسول له نفسه ارتكاب مثل تلك الجرائم.

وهذه العقوبات على نوعين:

حدود: وهي جزاءات حددها الشرع كحد الزنا، والسرقه، والقذف... .
وتعزيرات: أي عقوبات تأديبية يفرضها القاضي على جناية أو معصية لم يحدد الشرع فيها عقوبة.



٣- الجزاء الإلهي: إذا كان النوعان السابقان من الجزاء يقعان في الدنيا، فإن الجزاء الإلهي له طبيعته وامتداداته من الدنيا وإلى الحياة الآخرة.

في حالة الطاعة والامتثال له في الدنيا الرضا من الله والتوفيق والحفظ وتيسير الأمور والنصر والعزة، وهناك آيات كثيرة تؤكد هذا منها: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } {الطلاق ٢- ٣}. ومنها { إِنْ تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ نُصِرْكُمْ } {محمد ٧}.

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها وعدم التوبة منها له في الدنيا ضنك العيش والمصائب والسخط من الله، قال تعالى: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } {النحل ١١٢}، وقال تعالى: { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِن لَّهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً } {طه ١٢٤}.

وفي الحياة الأخرى للمؤمن الجنة والرضا، قال تعالى: { إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا.. } {الكهف ١٠٧} وقال تعالى: { إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } {مريم ٩٦}. وللكافر والمنافق نار جهنم والسخط من الله، قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ] {البينة: ٦} .



بِسْمِ اللَّهِ
بِحَمْدِ اللَّهِ

